

# ابن الرومي

شاعر لم ينصفه التاريخ

لم أجد في تاريخ الأدب العربي ولا فيما اطلعت عليه من تاريخ آداب الأمم الأخرى شاعراً اصطلحت عليه الأيام ، وظلمته الأحداث ، كهذا الشاعر الذي اجتمعت الآراء الأدبية المنصفة على أنه من أكبر شعراء العرب ، بل على أنه من أعظم شعراء الدنيا .

كان في حياته مضرب المثل في الفقر وسوء الطالع واضطراب الأعصاب وثورة النفس حتى لم يكن يستطيع تحمل النسمة الفاترة أو الكلمة العابرة ، فهو متوتر النفس دائماً ، يشور كالأطفال ، وتغلي عواطفه غلياناً شديداً يؤرق جفنه ويمذب ضميره ، حتى يقول من الشعر ما يخفف من ألمه ، فتثور الدنيا عليه ويأتمر به الناس ممن أصابهم هذا الشعر الجارح ، فيصبح ثانيةً غرضاً للأذى ورميةً للسهم السمومة من أعداء لا يرحمون ومنافسين لا يهدأون .

تلك كانت حياة هذا الشاعر العجيب الذي ملأ الدنيا شعراً وشعوراً ، وخلّف لنا من التراث الفني ما لا يقوم بثله عدد كبير من الشعراء .

لقد أثار الظلم من جميع النواحي فلم يستطع الدفاع ، وغزاه الإجحاف من كل فج حتى ضاع صوابه وهارت أعصابه ، وأنتى لقرينته الفياضة أن تقوم بكل هذا العبء ، وهل يستطيع مقول واحد مقاومة هذا السيل من الناس وكلهم يجب أن يؤذيه إما تشفياً وإما تسلياً ، والرجل الشاعر

الفنان ، المرهف الحسّ ، حائر بين هذه المصائب المتدافعة يحاول أن يرد الأذى عنه فما يقدر ، حتى أصابه أحد هذه السهام «بخشكانة» (١) مسمومة فارق فيها الحياة فأراح واستراح .

ولعلك تعجب أشد العجب حين ترى هذا التناقض التاريخي في النظر إلى هذا الشاعر الكبير ، بل يأخذك الاستغراب إذ تعلم أن القدماء شغلوا بهذا الشاعر حتى ملأ عليهم الوقت والتفكير ، ولكن هؤلاء القدماء أنفسهم ، أهملوا ابن الرومي إهمالاً لا مبرر له فلم يكتبوا تاريخه ، ولم يدونوا أحداث حياته ، ولم يتعرضوا لسيرته إلا في روايات قليلة لا غنيان فيها ولا فائدة ، ومع هذا فان الشاعر في رأي الكثيرين من مؤرخي أدب ذلك العصر وماتلاه من العصور لم يكن نكرة ولا مجهولاً ، بل كان ذا شهرة مستفيضة ، يروي الناس شعره ويستشهد به النقاد والأدباء بل لقد ذكر صاحب العمدة أنه ، أي الشاعر ( كان في من غطوا على الشعراء بشهرتهم ) .

أهل المؤرخون تاريخ هذا الشاعر عن قصد ونية ، وكانوا يضعون الكتاب يذكرون فيه كل الشعراء المعاصرين لابن الرومي ، حتى إذا مرّ ذكر الشاعر وجاء دوره ، ذكروا اسمه فقط أو نبذة صغيرة عنه ، ثم تجاوزوه إلى غيره بسرعة لا يترك فيها مما يترك قارى هذه الأيام في حيرة لا مخرج منها ، وشك لا كاشف له .

وهذا أبو الفرج الأصفهاني الذي وضع أكبر موسوعة أدبيه في عصره يذكر البحري ويترك ابن الرومي وهما معاصران ؛ وهذا ياقوت الحموي في معجم الأدباء لا يذكر ابن الرومي ولكنه يترجم للكثيرين من معاصري الشاعر وأساتذته وتلامذته وممدوحيه ومهجويه .

(١) الحشكانة نوع من الفطير يشبه «الكاتو» اليوم ، والكلمة فارسية الأصل .

كل ما ذكره أولئك المؤرخون الأعلام عن ابن الرومي أنه : ( ولد يوم الأربعاء بعد طلوع الفجر لليلتين خلتا من رجب سنة ٢٢١ بينداد في الموضع المعروف بالمقبة ودرب الختلية في دار يازاء قصر عيسى بن جعفر ابن المنصور ) ، وهذا ما نقلناه عن ابن خلكان ، وما كتبه غير هذا المؤرخ عن ابن الرومي ليس أكثر تفصيلاً ولا أوفر مادةً وعلماً .

ولعل من أكثر الكتاب في عصرنا الحديث اهتماماً بموضوع ابن الرومي المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد وقد شاركه في إكبار الشاعر ، المازني وعبد الرحمن شكري ، إلا أن العقاد كان أكثرهم اهتماماً وأبعدهم أثراً في دراسة هذا الشاعر وإحياء ذكره وتعريفه إلى القراء من أبناء الجيل الجديد . ولقد ركّز العقاد دراسته لشعر ابن الرومي على نقطتين : أولاهما أن الرجل لم يُنصف في تاريخ الأدب العربي ولم يُعط محله الذي يستحقه ، وثانيها أن "تفرّد ابن الرومي في طريقة شعرية خاصة ، وامتيازه من غيره من الشعراء العرب ؛ إنما يرجعان إلى أصله الرومي ، هذا الأصل الآري الذي يترك أثراً في سلالاته غير الأثر الذي نعرفه عند السلالات العربية السامية .

أما النقطة الأولى فالعقاد يتردد في تقرير رأيه فيها ثم يخرج من هذا التردد بفكرة جديدة غير واضحة ولا مستقرة ، فهو يقول ما معناه أن ابن الرومي لم يكن خاملاً في زمانه أو بعد زمانه ، ويحتج لرأيه هذا بأن ديوان الشاعر قد حُفظ ولم يضيع منه شيء ؛ وهو يعتبر بقاء هذا الديوان وعدم ضياعه دليلاً على شهرته واهتمام الناس به وعرفانهم لقدره معرفة تامة .

ولكن ضياع الدواوين الشعرية العربية لم يكن إلا نتيجة للنكبات التي أصابت المكتبة العربية خلال الغزوات التتارية من هولاء كو وجنكيز وتيمورلنك ، وقد يكون حظ ديوان ابن الرومي أعظم من حظ صاحبه

م (٧)

فسلم من هذه النكبات كما سلم ديوان المتنبي والبحري وأبي تمام وغيرهم كثير ، وليس هذا الضياع دليلاً على إهمال شاعر كبشار أو دعبل وإن ضاع ديوانها . وكذلك فإن ذكر هذا الشاعر في كثير من الكتب ، وحفظ مختاراته ، لا يمكن أن يُعد دليلاً على اهتمام الناس به ، لأن حفظ المختارات عمل يتناول حتى الشعراء المهملين حقاً ، أو الشعراء الذين تنحط مرتبتهم الفنية انحطاطاً كبيراً عن مرتبة ابن الرومي وأمثاله من الشعراء الأفاضل .

والذي أعتقده أن من أهم أسباب إهمال هذا الشاعر ما ورد في ديوانه من إقذاع وأدب مكشوف تجنبه الناس من الأدباء نتيجة ضغط ديني أو أخلاقي ، ونحن حتى في عصرنا هذا نجد من الصعب العسير أن يتعرض الأدباء لشرح الألفاظ النابية الصريحة التي لا تستطيع الكثرة الكاثرة من الناس احتمال قراءتها أو روايتها مكتوبةً أو مطبوعةً ، ولسنا بسبيل مناقشة هذا الرأي ، ولكن الواقع هو أن رأي غالبية الناس مازال مستقراً على أن مثل هذه الألفاظ الصريحة لا يجوز نشرها على الناس عامهً ، وإن جاز أن يطلع عليها أولو الاختصاص في سبيل هدف أدبي آخر .

إن هذه الألفاظ ( المكشوفة ) تعتبر في حد ذاتها خروجاً على المألوف وتحدياً لما هو معروف بين الناس من قواعد واصطلاحات خلقية واجتماعية ، وقد رأينا ما وقع لكتاب طه حسين ( الشعر الجاهلي ) ، وكتاب علي عبد الرازق ( الإسلام وأصول الحكم ) فهذا التفكير الجديد لم يجد فيه حتى المثقفون إلا خروجاً على التقاليد والأعراف والعادات ، ثم من ناحية الألفاظ النابية نذكر كتاب ( المختار من شعر بشار ) للخالدين ، فقد طبع هذا الكتاب مرة منذ سنين ثم أعيدت طبعته منقحةً بعد أن حُذف منها كل ما يشير إلى الصراحة والتبذل والجرح ، وكذلك كتاب ( أخبار أبي نواس ) الذي طبع منه الجزء الأول ثم فقد ، ولم يُعد طبعه حتى الآن .

أما ما زاه من التسامح في طباعة بعض الكتب الصريحة كالأغاني وبتيمة الدهر فهو لا يقوم نقضاً لرأينا في أن هذه الألفاظ كانت وتكون دائماً سبباً من أسباب عدم الاهتمام بالشاعر أو الكاتب ، وانصراف الناس عنها تجباً لسخط الطبقة المحافظة وغيظها .

يضاف إلى ما أسلفنا أن (الحنق الشخصي) الذي أشار إليه الأستاذ العقاد والذي عزاه إلى أبي الفرج الأصفهاني واعتبره سبباً من أسباب عدم إدراج الشاعر في كتابه ، إن هذا الحنق لا يصح اعتباره سبباً من أسباب الإهمال ، وإلا فكيف نفسر إهمال بقية المؤرخين لهذا الشاعر؟ وهل يمكن أن تصور أن هنالك حقاً عاماً على هذا الشاعر؟ قد يمكن ذلك إذا رجعنا إلى الفكرة التي سبق شرحها وهي أن (بذاءة) الشاعر قد حجبت عنه أقلام المؤرخين حتى تجنبوا الخوض في ذكره والإتيان على شرح حياته وشعره . إذا كان هناك إهمال فليس له سبب زاه غير هذه الألفاظ التي جاءت على لسان الشاعر نتيجة لثوراته واضطراب أعصابه وهوسه ؛ ولقد وصلت به الحال إلى تشاؤم أبعده عن الناس ، وجعله في عزلة عن كل معارفه وأصحابه ، حتى تسلط الأولاد عليه فراحوا يداعبونه مداعبة خشنة قاسية كانت تثير فيه الغضب الكاسح والسباب الجارح ، فانصرف الناس عن مزايه الفنيّة ، ولم يروا عنده إلا هذه الشتائم المتطرفة التي يندى لها الجبين . وربما جاز لنا أن نخالف هذا الرأي كلية فنقول : إن هنالك مؤرخين تعرضوا لذكر ابن الرومي دراسةً وتفصيلاً ، ولكن كتبهم ذهبت في النكبات المتعاقبة ؛ وقد قيل إن ما بقي من الكتب العربية لا يحسب شيئاً بالقياس إلى ما ذهب منها ؛ فإذا صدقنا هذا الرأي أصبح من السهل لدينا أن ننفي عن تاريخ ابن الرومي الإهمال كله لنقول بأن حظ السبي قد أزال من عالم الأدب الكتب التي تعرضت لذكره وعثيت بأمره .

والنقطة الثانية التي شغلت العقاد في دراسته لشعر ابن الرومي هي هذه (الرومية) التي جعلها مصدراً لنبوغ الشاعر في «التصوير» و«التجسيد» للمريثات التي كانت تقع عليها عينه ؛ ولكن هذه «الرومية» ليست في نظرنا إلا «نظرية» ما تزال محتاجة إلى «الإثبات» قبل أن تصبح حقيقة مأمومة مقررة ؛ ولقد شارك العقاد في هذا الرأي كثيرون من مؤرخي الأدب العربي من مثل سليمان البستاني فوصل ما بين شاعرنا وهوميروس بسبب من القرابة الفنية والتائل في الأسلوب والمعاني والتشبيهات ، ورأى بطرس البستاني أيضاً هذا الرأي في كتابه «أدباء العرب» ، فعزا عبقرية ابن الرومي إلى أصله «الأعجمي» وهو يشير إلى أصله اليوناني ، وخالف العقاد بعض الأدباء أيضاً من مثل الأستاذ أنيس المقدسي والدكتور عمر فروخ ؛ ومعنى هذا أن هذه الفكرة (الرومية) قد أوجدت خلافاً أديباً ونقاشاً علمياً حول مسألة لا يمكن البت بها ، ولا تقرير شيء فيها .

فابن الرومي كان أبوه يونانياً ، وهذا ما أثبتته جميع المؤرخين ؛ ولكنه من جهة ثانية يرجع إلى أصل فارسي من جهة أمه ؛ وما نشك نحن ولا علماء الوراثة في أن الأب والأم يشتركان في توريث الابن خصائصها ، بل ربما كان نصيب الأم في الوراثة أقوى وأشد ، إذا نظرنا إلى التجارب والمشاهدات ، فكيف قصرنا أثر هذه الوراثة عند ابن الرومي على أبيه ، وأهملنا ذكر أمه الفارسية ؟ هذا سؤال يتبادر إلى الذهن لاهلة الأولى ، لأن العقاد والقائلين برأيه يحددون نسب الشاعر فيجملونه يونانياً ويقولون إن الأثر التصويري الذي انتقل إليه جاء من اليونان أهل أبيه ؛ وكان على أصحاب هذا الرأي أن يلتفتوا إلى أصله من جهة أمه فلعل للفرس نصيباً في هذا الشاعر الذي اختلف الناس في تحليل طريقته الشعرية .

إن الأسباب التي دعت إلى تفرد ابن الرومي في صفات لا تشبه صفات الشعراء الآخرين في عصره أو في العصور الأخرى يمكن إعادتها إلى ثلاثة أمور أو أربعة :

أولها : أن ابن الرومي ، رغم نبوغه الفني كان مريضاً ، يعتمد عن الناس ، والناس يعتمدون عنه مما جعل الاهتمام منحصرأ في شعره فقط فحفظ بعض هذا الشعر واختير للمناسبات والاستشهادات وأعجب الناس به رغم كرههم لشخص ناظمه ومنشئه .

وثانيها : أن البذاءة التي انتظمت الجزء الكبير من هذا الشعر حجبت عن الديوان الرائع كثيراً من العيون التي يجب أصحابها المحافظة على الأخلاق والاصطلاح العام ويأنفون من قراءة الأدب المكشوف والكلام على عورات الناس وعيوبهم .

وثالثها : أن ابن الرومي هجا شخصيات كثيرة لها أثرها ووزنها في عالم تلك الأيام ، فقد تناول في هجائه عدداً من الوزراء والكتاب والقواد والأغنياء والوجهاء ، وهؤلاء كانوا مرجعاً للشعراء والأدباء ، كما كانوا مصدراً لرزقهم ، وموردأ لعيشهم ، لذلك اضطر أولئك إلى تجنب الحديث عن ابن الرومي مداراةً لأصحاب النفوذ وتجنباً لغضب من ييدهم الحل والعقد .

يضاف إلى الأسباب التي مرت سبب رابع هو عندي أهمها جميعاً ، وأعني به هذا التعقيد الذي يرين على شعر ابن الرومي ، وهذا التوليد في المعاني الذي يجعل هذه المعاني متراكبة متشابكة يتعب قارئها ويجد في فك رموزها وطلاسمها عنتاً كبيراً ، فشعر ابن الرومي صعب على الحفظ ، لأن ابن الرومي من شعراء المعاني لا شعراء الدباجة والأسلوب ؛ وشعراء الأسلوب الرائع والدباجة السمحة هم أكثر الشعراء قراءاً وحفاظاً ، فانت تحفظ شعر شوقي والبحري في يسر وسهولة ، ولكنك تجد شيئاً من الصعوبة

حين تحفظ شعر أبي العلاء وأبي تمام ، لأن الكلمة عند شوقي تستدعي الكلمة التي بعدها للقرابة القريبة بينها ، ولأن شوقي والبحري يههما قبل كل شيء الموسيقى والتناسق والانسجام في النغمة بين ألفاظ البيت الواحد ، ولو أدنى هذا القصد إلى السطحية أحياناً ؛ أما أبو تمام مثلاً فاهتمامه منصباً على إيجاد المعاني الجديدة والصور الطريفة فهو مشغول الذهن بهذه الناحية ، منصرف عن اللفظ إلى الفكرة ، وهو يضع الكلمة في البيت الواحد كيفما اتفق ، بشرطة أن تؤدي المعنى الذي يرمي إليه ، لذلك فإن الكثير من ألفاظه يخرج نائياً على السمع ناشراً عن الأذن لفقدان النغم بين الكلمات المتجاورة والألفاظ المتقاربة . وابن الرومي من شعراء الفكرة والصورة - أما الموسيقى عنده فتأتي بعد هذا كله ، ولهذا فإن حفظ شعره كان صعباً على الحفاظ ورواد الأدب وأصحاب الميل الفني ، ولهذا أيضاً كان شعره أبعد عن الاهتمام به من شعر زميله ومعاصره البحري ؛ فاذا قدرت أيضاً هذا الشرح والتطوير والتمقيد الذي تراه في شعر الشاعر استظمت فهم سبب هام من أسباب زهد الناس في دراسة شعر ابن الرومي وشرحه .

وخلاصة البحث أن الناقد في هذا الزمن ، وبعد أن مر على ابن الرومي أكثر من عشرة قرون ، يجد صعوبة بالغة في تقرير حقيقة تتعلق بشخصه وأدبه ؛ ومن الخير للأديب وللأدب أن لا يرسل الناقد آرائه إرسالاً ، وأن لا يجعل منها أحكاماً لا تقبل المناقشة ، فان طبيعة الرأي الأدبي تجعله ليناً قابلاً للأخذ والرد ، وإن كل رأي أدبي معرض للخطأ مادام هذا الرأي مبنياً على التخمين والتقدير .

أحمد الجندري

